

في سيمياء القاص الفلسطيني المناضل

حول «كان يومذاك طفلاً»
لفسان كنفاني:

تولد المقاومة من العدوان
الصهيوني على السلم الفلسطيني

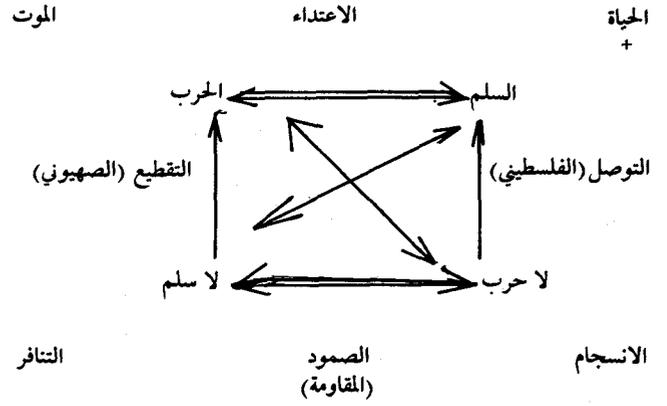
د. سامي سويدان

بسلحها وعتادها، والذين يأتون بالفعل الإجرامي القبيح، ولا يتورع قائدهم عن ضرب الطفل الصغير وتهديده بالقتل، معلنين بذلك حرباً همجية وشرسة ضد الفلسطينيين المسالمين والأبرياء. إلا أن موقف الطفل الذي يتمرد على الإرهاب الصهيوني لا يعلن وجه التحدي والصمود الجريء إزاء هذا الإرهاب البشع وحسب، وإنما يرسم أيضاً أفق المقاومة والتصدي البطولي لعدوانيته المشينة والغادرة.

بيد أن التضاد الأساسي الذي ينهض بين السلم (الفلسطيني) من ناحية، وبين الحرب (الصهيونية) من ناحية ثانية يظهر تناقضاً بارزاً بين التواصل الذي يسم الطرف الأول - وهو لا يقتصر على المسعى الذي ينخرط فيه أولئك الركاب، بل إنه يتناول كذلك العلاقات المختلفة التي تنسج فيها بينهم خلال وجودهم المشترك في السيارة التي تقلهم إلى أهدافهم - وبين التقطيع الذي يسم الطرف الثاني - والذي لا يقتصر على النيل من مسعى الركاب التواصلية ووجودهم الحي بصورة جذرية ونهائية بل يتطلع كذلك إلى النيل من التواصل والوجود الفلسطيني ككل. على هذا النحو ترسم المعالم الأولية الأساسية لبنية النص الدلالية العامة كما يمكن للمربع السيميائي التالي أن يعطي فكرة موجزة وواضحة عنها:

ليس من العسير تلمس البنية الدلالية العامة للنص نظراً لما يعرفه هذا الأخير من بساطة تطبع أحداثه الرئيسة وأوضاع شخصياته، دون أن تعني هذه البساطة سطحية في الرؤية الفكرية أو في الأداء الفني. إنه على العكس من ذلك يحظى بغنى دلالي عميق، وجمال سردي رفيع، يسدون في التحامهما بالبساطة المذكورة من أبرز السمات القصصية التي تميزه وتشكل بعداً تكوينياً أساسياً في فرادته. إلا أن هذه البساطة تتيح لنا التعرف بيسر على التناقضات الأساسية التي تؤلف قاعدته التركيبية والتي تشكل المفاصل الكبرى للعلاقات المحورية التي تنهض عليها بنيته العامة. فمن جهة تظهر مجموعة من الركاب الفلسطينيين المتوجهين في سيارة نقل إلى بلدات وقرى تنتشر على ذلك الخط الممتد من حيفا إلى نهاريا فأعماق الجليل، يعترضها حاجز جنود من «اليهود» عند نهاريا ويقوم بتصفيتهم جميعاً ما عدا طفلاً واحداً يستثنيه لينقل خبر المجزرة إلى الآخرين. من جهة ثانية يتم تقديم الفلسطينيين كجاعة مسالمة وديعة تمضي في رحلتها هذه على أنغام شبابة أحد الركاب وغناء السائق وأحاديث الشواغل اليومية لأفرادها الذين لا يحملون معهم غير أنواع من الطعام وألعاب للأطفال وبعض الرسائل، ولا تبدر منهم أية حركة أو كلمة عدوانية حتى في لحظة الإجهاز المريع عليهم، مقابل الجنود «اليهود» الذين يحضرون كقوة عسكرية

المعطي الدلالي العام للأقصوصة



إلى أبعد من ذلك في مده التوصل إلى الركاب أنفسهم إذ ينسج علاقة «غير منطوقة وغير مرئية، تربط بين عشرين إنساناً لم يتبادلوا، خلال حياتهم كلها، إلا تحية ذلك الصباح وهم يتظنون السيارة في شارع الملك فيصل بحيفا.»

يتمتع هؤلاء الركاب بدورهم بسبات من التوصل دامغة. فعمال الميناء الذين يرجعون إلى قراهم في الجليل، وفلاحو قضاء حيفا الذين يعودون إلى أقاربهم في قضاء صفد، وطفل «أم الفرج» الذي يحمل إلى أمه الجواب الذي كلفته بالحصول عليه من حيفا، والمحامي الذي يمضي إلى تفحص أرض في الكابري ليُدافع عنها في حيفا، والمرأة التي «تسعى إلى خطب فتاة لوحدها»... جميعهم يؤدون عمليات وصل تخصهم مباشرة أو يتولونها لمصلحة طرف آخر. وتكاد جميعها على تنوعها واختلاف القائمين بها تتوحد وتتجانس في هذا الوصل الدال على الحياة والاستمرارية والتوالد. وليست أغراض الركاب إلا صورة عن هذا الوضع التواصلي الخاص. فالأطعمة والألعاب والرسائل هي بدورها وسائل اتصال مباشر أو غير مباشر تؤكد البعد الدلالي المتعلق بالحياة والاستمرار، وإنما أيضاً بالفرح والغبطة، مضاعفة بذلك من السمة الإيجابية للتواصل ومن غاياته السلمية.

وإذا كنا قد أشرنا إلى الدور التواصلي المركب الذي يؤديه كل من الشبابة والطريق والسيارة، فإن كلاً منها يحظى بمتابعة تفصيلية تبرز وظيفته المتميزة في هذه المعطيات الكلية. هكذا تتقدم السيارة عامل وصل بامتياز، ليس بربطها - كما الطريق - الأماكن المتفرقة ببعضها فقط، وإنما أيضاً الأشخاص والوسائل إلى غاياتها. إلا أن الإشارة الأخيرة إلى الزوج الذي توصله إلى «امرأة لم تستطع أن تنتظر» تبقى ملتبسة، وإن غلب الوصل في التأويل المترجح بين نظرة ترى فيها دلالة على وصول قبل أوانه المعهود أو المفترض، وأخرى ترى فيها وصولاً متأخراً مفتوحاً على قطع محتمل. ولا تعمق الشبابة هذا التواصل بين الداخل والخارج كما يوحي به وضع الرجل الذي «أطلق بصره عبر النافذة، وترك للحن أن يخضه، كجرة الزبدة» وحسب، وإنما تضيء جواً من الألفة والأمان بحيث ينام الطفل في حضن العجوز التي تجاوره، ويدندن السائق أغنية حب ووله تناشي مع اللحن المذكور، كأن الطفل يجد في هذا الجوف العجوز أمّاً تحضنه، والسائق في الغناء جواباً يجاور من خلاله لحن الشبابة، والوصل قائم في الحالين كما هو قائم كمشروع في الأغنية نفسها التي تعبر عن سعي الحبيب لوصال الحبيبة، وفي تحضير إحدى الركابات لرقاقة «محمشة بيض مسلوقة مبهراً» بانتظار أن يصحو الطفل قطعته إياها. أما الطريق فإنه، رغم كونه الخط الواصل بين الأمكنة المقصودة، يشهد على امتداده نزاعاً واضحاً بين حركتين متعارضتين، كما يدل على ذلك وضع العناصر الطبيعية والمنشآت الاجتماعية التي تشكل إطاره المشهدي المحدد. إذ يبدو انبثاق النخيل متعارضاً مع اتجاه «الرياح القادمة من البحر» كما يظهر نهر

يبين هذا المربع السيميائي عن توزع المعطي الدلالي العام في مجالين دلاليين متناقضين بناءً لما يؤسسه التضاد القائم بين السلم والحرب المجال الأول هو ما يشغله السلم ومضمونه اللاحرب وما ينشأ عن اجتماعها من تواصل مرتبط بالانسجام الحاصل فيه، وهو مجال إيجابي يحمل علامة الحياة والاستمرارية. أما المجال الثاني فهو ما يقيم فيه الحرب ومضمونه اللاسلم من تقطيع وتخريب على صلة قوية بالتنافر الناتج عن ذلك، وهو مجال سلبي يحمل علامة الموت والإبادة. إن اللقاء الذي يجري بين السلم والحرب يتمثل في الاعتداء الكاسح الشراسة الذي يشنه الصهانية على الفلسطينيين، ويجد نقيضه في تلك المقاومة أو ذلك الصمود الوليد الذي يبديه تحدي الطفل في وضع اللاحرب واللاسلم الذي يجد نفسه فيه.

● ينطلق النص من عالم السلام الفلسطيني الذي يتقدم عالماً من التآلف والتجانس والانسجام موسوماً بقوة بطابع التواصل والتكامل والتعاون. يصدق ذلك على الشخصيات كما يصدق على الإطار الزمني - المكاني الذي تتناول فيه. في هذا الإطار تبرز الطبيعة أولاً لتعلن في تضافر عناصرها المختلفة مشهداً افتتاحياً يتحد فيه الجمال مع الأمان. وهي تشير إلى استمرارية زمنية تفضي من الليل البارج إلى النهار القادم مع لحظة الشروق التي تميزها. ويبدو سحرها المطمئن مضاعفاً في اتصالها بذلك المكان الفلسطيني الذي يتقدم متداخلاً مع هذه الطبيعة منسجماً مع عناصرها وتميزاً مثلها بالتواصل انطلاقاً من ذلك الطريق الذي يصل المدن ببعضها (حيفا بعكا...). لذلك فإن سيارة الركاب التي تمضي على هذا الطريق لا تكرر هذه المعطيات جميعاً وحسب بل تكملها أيضاً وهي تقوم بذلك عبر ولوجها هذا الطريق أو انسيابها في «أنفاس الشروق»، كأنها بذلك تملؤ فراغاً وتسد ثغرة تشكل في غيابها خللاً في ذلك العالم المرسوم بقدر ما تؤديه عبر ذلك اللحن الذي تصدح به شبابة قصب واحد من ركابها. وهو لحن لا «يكمل الطبيعة» وحسب وإنما يكمل ما يفتقده ركاب السيارة أنفسهم أيضاً، وبذلك يسهم، مثله مثل السيارة، بتأمين التواصل والانسجام بين عناصر الطبيعة والمكان من جهة وبين هذين والسيارة والركاب من جهة ثانية، بل إنه يمضي

عليه، وفي اليسار تتقدم الصحية والمراثب بصفوف دواليها وسياراتها باعتبارها كفاحاً ضد الموت الطارئ كذلك، على أن هذا الطابع المشترك بين الجهتين لا يمنع من ملاحظة قدم الموت يميناً وطروءه يساراً، وبالعكس طروء الحياة يميناً وقدمها يساراً. . . كأن الاندراج والمضي في الطريق كما يتبدى من خلال التفاعل الدلالي بين يمينه ويساره يؤدي إلى تداخل ومواجهة مباشرة بين الحياة والموت اللذين لا يعودان كل على طرف منفصل عن الآخر، بل يصحان قائمين كليهما في كل من الطرفين دلالة على تعقد الصراع واشتداده بينهما؛ فيرتسم خط خفي من التواصل بين الحياة في هذه الجهة والحياة في تلك على تعارض مع الموت الذي لا يكف عن إعلان الانقطاع والانفصال. إلا أن الحياة التي تتكامل في هذا المنظور بين الإقامة والعمل وتتجانس في الحالين من حيث المعنيين بها ومن حيث الزمان المطروق محققة بذلك وصلاً بين الضفتين وبالتالي في المكان ككل، تتعارض مع الموت في ذاته، كما في اختلافه في جهة عنه في الأخرى من حيث المعنيين به ومن حيث الزمان المقصود، ليؤكد قطعاً ينال من المكان ككل. إنما ينبغي أن نلاحظ أن هذا الموت والقطع الذي يتضمنه يختلف كذلك في الموقعين المذكورين من حيث طبيعته، إذ أنه في الجهة اليمنى اجتماعي (حري) في حين أنه في الجهة اليسرى طبيعي (وجودي)، كما يمكن القول بأنه في الجهة اليمنى وافد عدواني كما يتيح ذكر الجنود إزاء السور تصورهم غزاة ومعتدين، بينما هو في الجهة اليسرى محلي وسلمي كما تسمح الإشارة إلى مبنى الصحية والمراثب باعتقاده. كأن المنشآت الاجتماعية على هذا المستوى الأخير تردد أصداء العناصر الطبيعية التي سبقتها مؤكدة هذا الصراع بين الموت والحياة، بين الحرب والسلام، بين الغزو والمقاومة. . . كأن الطريق يرسم كذلك هذا التطور في الصراع بين الحياة والموت في انتقاله من المستوى الطبيعي إلى المستوى الاجتماعي والطبيعي معاً مع كل تعقيدات المواجهة الناشئة عن ذلك. وكما في حال السيارة في انتهائها إلى إشارة الوصل الملتبسة، وفي حال الشبابة التي تنتهي إلى مشروع وصل، كذلك الحال هنا بصدد الطريق إذ ينتهي القصص إلى احتمال وصل، ليؤكد النص عبر ذلك كله تماسك وتمائل وتجاور الدلالات (تواصلها) في الإيماء إلى أفق مستقبل احتمالي وملتبس. . . وذلك رغم الإشارات المتكاثرة إلى الخطر المتعاطم من تداخل الصراع بين الحياة والموت على ضفتي الطريق ذاته. . .

على هذا الطريق بالذات تمضي السيارة على لحن الشبابة بالركاب الذين يستمرون في مواصلة سلمهم وتواصلهم عبر تصرفاتهم وأحاديثهم. فخلع الرجل لمعطفه وتغطية الطفل النائم به يدل بالطبع على رعاية وتآلف، وإنما أيضاً على غيرة وإيثار يعلنان مستوى متقدماً من التواصل. والأمر نفسه قائم في تقشير الآخر لبرتقالة من سلته وتقديمها «إلى جاره أولاً كما تقتضي الأصول»، على أن هذا الفعل الأخير يشير أيضاً إلى تواصل مع إرث من التقاليد

«النعمين» الحزين المتعب وإنما النقي متعارضاً مع البحر وموجه الصاحب. وإذا كان النخيل والنهر يشغلان موقعاً مكانياً أو جهة مكانية متجانسة تدخل في تعارض مع جهة أخرى محورها البحر في رياحه وموجه، فإن ما ينتج عن تعارض كل منهما مع الجهة المقابلة يأتي مخالفاً للآخر. ففي حين يرتفع النخيل «مطعوناً متراجعاً حائراً في عراكه الصامت الممض» مع الرياح البحرية، يصب النهر في الموج «فيرده بهدوء عنيد، إلى الوراء». كأن هذا الاختلاف لا يؤدي توازناً في الحركة المشهية ككل وحسب، وإنما يقدم هذا التوازن علامة على صراع مضمّر وغير محسوم بعد بين ما هو في الشرق منشقاً ونابعاً من أرضه، وما يأتي من الغرب قادماً في ريجه وموجه، أو بين المقيم والأصيل والمسال وبين الوافد والغريب والعدواني. ولا تبعد المنشآت الاجتماعية عن الايحاءات بدلالات مماثلة، إذ تتوزع بدورها بين يمين ويسار. ففي اليمين تبرز أولاً مقبرة عكا مقابل «محطة إلى اليسار» تليها «البيوت المبنية بالحجر القدسي» ووراءها «الحديقة العامة» ترتفع من بعدها قمم سور عكا وأبراجه. . . فيتواجه بذلك الموت والانفصال من جهة (اليمين) والحياة والاتصال من جهة ثانية (اليسار)، ومن الواضح غلبة الوجه الأخير على الأول والتأكيد الذي يعرفه التواصل السلمي فيه، من خلال الإشارة إلى الحجر القدسي في عكا وتشبيهه بالرغيف، وإلى الحديقة العامة بأشجار الكينا العالية فيها، بما يتضمنه ذلك من معاني السلم والتلاقي وتنامي العيش. . . وإلى قمم السور وأبراجه بما توحي به من إمارات الدفاع عن الحياة وحفظها، وكذلك علامات التواصل مع الماضي والتاريخ. . . وإذ يظهر من ثم إلى اليمين صفوف البيوت الجديدة الصغيرة والمزرعة ورداً عنياً غزيراً، ففي الأفق وراءها يرتفع «تل الفخار» بسفحه «المسال المزروع بقبور جنود» سقطوا دون سور المدينة، بينما يبرز إلى اليسار «مبنى الصحة الحجري، وسلسلة المراثب التي لا تنام وهي ترقب صفوفاً من الدواليب» وسيارات محطومة تنتظر أن تصلح أو تتلف. . . فيبدو الطريق في تقدمه يحمل خلاً إلى المعطيات الدلالية لكل من اليمين واليسار دون أن يكفأ مع ذلك عن التعارض فيما بينهما. ففي اليمين تطرا بيوت الإقامة الجديدة لتدخل في إطار الموت المتمثل في قبور العسكريين الناهدة في الأفق عنصر حياة وسلام مناقضاً له، بينما يطرا في اليسار المرض الإنساني والخلل في السيارات ليدخل في إطار الحياة المتمثل في العمل الدؤوب والتواصل الكامن في تجانس لافت بين المعالجة الصحية وإصلاح المراثب، احتمال الموت والتبديد. . . قد يجد هذا الخلل تفسيره في سبر الدلالة النهائية لعلاقة اليمين باليسار هنا وفي سياق الامتداد المكاني ككل. فمن ناحية تبدو الجهتان وكأنها تشتركان في مواجهة الموت، ففي اليمين تتقدم صفوف البيوت الصغيرة عملاً جديداً وقريباً إزاء القبور القديمة والبعيدة، إنها انبثاق وليد في المكان ينزع عنه استحواد الموت

والأعراف يؤكد الراهن ويقويه. وإذا جاء حديث رجلين آخرين عن موسم الزيت يتضح بدلالات تواصل مع الطبيعة والإنتاج والحياة، فإن رواية المرأة البدنية لتفجير «اليهود» سيارة شحن مملوءة بالبرتقال أمام دار للأيتام في يافا مما جعل جثث الأطفال تتناثر «ممزوجة بجبات البرتقال المفزورة» تدخل إلى التواصل الذي يحققه الحديث بذاته عنصراً جديداً ميزته القطع والموت. هذا العنصر هو عمل عسكري عدواني صهيوني على مؤسسة رعاية اجتماعية (فلسطينية) يذكر إلى حد كبير بذلك الصراع الذي سبقت الإشارة إليه في العناصر الطبيعية والمنشآت الاجتماعية. فالمؤسسة المذكورة تعبير بليغ عن التواصل الفلسطيني المسلم، ليس فقط من خلال تعويضها الأهل المفقودين وسد النقص الحاصل بغياهم، وإنما أيضاً من خلال تعبيرها عن تآلف وتآزر اجتماعيين ومن خلال جمعها لهؤلاء الأطفال المتفرقين في دارها. بينما يأتي الاعتداء الصهيوني ليدمر هذا الوجود التواصل الفلسطيني في صميمه، إذ أن تمزيق أجساد الأطفال يلغي وجودهم والدور التواصل الذي يجسده. إنه اقتحام حربي مبيت يضيف إلى المعاناة («الطبيعية»؟!) الموجودة - موت الأهل - أذى أكبر وأشد. كما أنه يدمر - إضافة إلى ذلك - مفاصل التواصل المعتمدة بدءاً من سيارة الشحن وصولاً إلى درج الميتم مروراً بجبات البرتقال نفسها، محولاً بذلك أدوات التواصل كما موضوعاته والمعنيين به إلى موت قاطع يعم الطريق والسيارة والمنشآت والناس جميعاً في تناقض صارخ وحاد مع جميع ظواهر التواصل الفلسطيني الملاحظة حتى الآن، وخاصة فيما انتهت إليه من رعاية الركاب للطفل وتقديم أحدهم البرتقال لجاره. . في سيارة محملة بالطعام ولعب الأطفال تمضي بهم على أنغام شياطة من قصب. ويأتي تعليق الشيخ المعمم على الخبر بالركون إلى قدرة الله اليقينية على الانتقام معبراً عن بعض مظاهر هذا التناقض هامة. فهو يشير إلى اتكالية ما وراثية في وجه فعل إرادي واقعي، لكنه يشير أيضاً إلى غفلة متناهية إزاء ما هو مخطط ومدروس. فالفلسطينيون هنا يزاولون سلمهم دون أدنى وعي للحرب التي يشنها الصهاينة عليهم، حتى ليظهر التناقض بين الطرفين في مفارقة هائلة بين علمين متباعدين، بحيث يؤدي التقاؤهما إلى حدث مأساوي خطير. كأن حديث المرأة البدنية الحاجة لا يعلن ذلك وحسب، وإنما يمهد كذلك للواقعة التي تليه مباشرة.

إن ما يلي هذا الحديث هو ذكر نهاريا - أول مستعمرة صهيونية في الجليل - التي تشكل نهاية الخط الساحلي لمسيرة سيارة الركاب قبل أن تنعطف شرقاً إلى العديد من قرى الجليل. ويحيى ذكرها إعلاناً عن قرب الوصول إليها، وبالتالي عن اقتراب العالم الفلسطيني المسلم من العالم الصهيوني العدواني. ومع هذا الاقتراب تتحول المعطيات التي كانت قائمة حتى حينه لتعلن انعطافاً ليس نحو الشرق الفلسطيني الوديع، وإنما نحو القطع الصهيوني الفظيع. يتم هذا التحول في توازٍ بارز بين داخل السيارة وخارجها يؤكد الوجهة القصصية المعتمدة هنا دلالة على التواصل العميق بين الفلسطينيين ومحيطهم

المكاني. فصحوة الطفل تتوازي مع توهج الشمس، وتخصير راكب نفسه للمغادرة يتوازي كذلك باعتباره مشروع انتقال وبلوغ مع جر الحمار الأبيض الصغير لعربة الخضار، أما صمت الشياطة فيتوازي مع ظهور الجنود الصهاينة. ويمكن للقارئ أن يتابع تأويلياً التوزيع الدلالي لعناصر المكان بحيث يلحظ وجود عربة الخضار وحمارها الأبيض على يسار الطريق في موقع السلم والعناية والتواصل كما يرجح ذلك «طرف الطريق»، ووجود الصهاينة المسلحين على يمينه في موقع الحرب والاعتداء والتقطيع كما يرجح ذلك وضعهم كحاجز يتعرض للسيارة المتجهة شمالاً نحو نهاريا. وإذا كان بالإمكان اعتبار الإشارتين الأوليين ملتبستين بقدر ما تدل كل منهما على الوصل والفصل في آن، حيث أن استيقاظ الطفل قد يكون انفصلاً عن حضن العجوز وأمان النوم واستشعاراً غريزياً بالخطر، بقدر ما يكون اتصالاً بالركاب الآخرين ومشاركة لهم فيما يعيشونه، وأن مغادرة الراكب المرتقبة هي انفصال عن بقية الركاب وعالمهم المكون في السيارة، بقدر ما هو اتصال بالجهة التي يقصدها، فإن الإشارة الأخيرة حاسمة الدلالة على القطع الخالص الناشئ. فصمت الشياطة بحد ذاته انقطاع للحن الذي شكل مع السيارة علامة الارتباط الخاصة والخفية بين الركاب، وعنصر تجانس وتكامل مع الطبيعة، بحيث يعد افتقاده فجوة ومفاجأة للركاب. وهذا بالتحديد ما توضحه إثر ذلك تعليقاتهم معلنة حقيقة المفاجأة الفعلية القائمة في الخارج بدءاً من توجس السائق للخطر، وظن أحمد أن الحاجز الصهيوني دورية (انكليزية؟) وتصحيح صلاح لقوله وصولاً إلى دعاء الحاجة واستعانتها بالله على هذا الخطر الطارئ.

بتوقف السيارة وإطفاء السائق محركها يتجسد هذا القطع مكانياً في توقف انسيابها - مثلها مثل الشياطة - في حركة الطبيعة والزمن، فتتعاظم الفجوة في هذا الإطار الوجودي ومعها خطر القطع المبيت. تنعكس هذه الفجوة في النص انعطافاً حاداً يتخلل فيه عن متابعة عالم التواصل السلمي الفلسطيني الذي كان قائماً في السيارة حتى توقفها ليتحول إلى متابعة عالم القطع الحربي الصهيوني الذي يعلنه الأمر العسكري المفاجيء: «انزلوا». إن هذا العالم الأخير عالم البطش والإرهاب، وهو بذلك، منذ تدخله، لا يتيح للعالم السابق أي فرصة للتمظهر أو التعبير غير فرصة الموت التي يفرضها عليه، هذا الموت الذي يشكل المآل النهائي للتوقيف الذي فرض على حركة الفلسطينيين، للتقطيع الذي يسقط على تواصلهم. هكذا يغيب السلم الفلسطيني تحت وطأة الاعتداء الصهيوني فلا يعود يبدو من هؤلاء الركاب أي تصرف أو كلام منذ إنزالهم حتى قتلهم، لتستحوذ الحرب الصهيونية وجنودها على التعبير تصرفاً وكلاماً. وخلافاً لعالم السلم الفلسطيني الذي يتقدم مبنياً على التواصل والانفتاح والحياة في وضعه داخل سيارة النقل وفي توجهاته ومشاريعه المتألفة مع الوجود. . فإن عالم الحرب الصهيوني يتقدم مبنياً على القطع والانغلاق والقتل في وضعه كحاجز على طريق

المواصلات، كقطاع طريق، وفي تأليفه لمجموعة مبهمة الأصول مبهمة المصير، ناشزة متنافرة مع محيطها الطبيعي والاجتماعي، سمتها الأساسية الاعتداء والتخريب، القتل والتدمير. . .

● هكذا يعلن هذا العالم (الصهيوني) عن نفسه إزاء العالم الآخر بفعل الأمر الحازم والمعبر عن علاقة سلطوية يسيطر فيها المتكلم، ولا تترك مجالاً لحوار بينه وبين المخاطب أو لرد من قبل هذا الأخير. المتكلم هنا جندي صهيوني مسلح والمخاطب ركاب السيارة المسالين العزل. إلا أن هذا الأمر يعني أيضاً إخراج هؤلاء الركاب من كونهم الصغير المتجانس في سلمه وتواصله إلى فضاء آخر يشكل قطيعة مع السابق، لا يعودون فيه ركاباً بل موقوفين خاضعين لسلطة عسكرية غريبة، إلى فضاء الحرب والقطع الذي يهيمن عليه الجنود الصهانية. وإذا كان السائق ينزل مع الطفل فإن إنزال النساء أولاً ثم الرجال بعدهن ينم عن آثار القطع الممارس على ذلك العالم الفلسطيني وبدء تفتيت لوحده التي كانت قائمة عادية وراسخة حتى حينه.

لكن الاعتداء الصهيوني لا يتوقف عند هذا الحد بل إنه يمارس إلى جانب التفتيت المذكور تحريماً لعناصر التواصل التي كانت حتى تدخله متلاحمة مع وضع الركاب المسالين. فتفتيش البشر وبقر السلال وفتح الصرر، جميع هذه الإجراءات اقتحام عدواني لعالم هؤلاء الركاب واعتداء فقط ليس على حريتهم وممتلكاتهم وحسب، بل أيضاً على مظاهر وجودهم وتواصلهم، يبرز فيه التناقض بين الركاب المدنيين العزل والجنود الصهانية المدججين بالسلح، بين بياض الصرر المسالمة وسواد عصا القائد العداوية، كما يتقدم فيه بقر السلال، خاصة بما تحويه من طعام ولعب أطفال ومكاتب وبرتقال، ليذكر بحبات البرتقال المفزورة والممزوجة بجثث الأطفال نتيجة انفجار اللغم الصهيوني في يافا، وليوحي بالنهاية المأساوية التي تنتظر أصحابها. إن في إعلان الجنديين لقائدهما خلو السلال والصرر من السلح دليلاً على سلمية الفلسطينيين وعلى حربية الصهانية المسلحين الباحثين عبثاً عما يمثّلهم لدى الآخرين، وعلى التناقض الحاد بين هذين العالمين. لكن موقف القائد يأتي ليعبر على أرقى ما يكون عن عالم الفصل والقطع الذي ينتمي إليه. ذلك أنه لا علاقة ظاهرة بين نتيجة هذا التفتيش والقرار الذي يتخذه. والقطع قائم هنا في التصرفات نفسها، كما في صميم المنطق الذي يحكمها.

الإجراء الأول الذي يتخذه القائد هو انتزاع الطفل من بين «ذويه» وجعل الباقي في صف واحد على جانب الطريق. إنه إعادة تكوين للعالم الفلسطيني خاضع لمنطق القطع العدواني. إذ أن انتزاع الطفل يمثل انتزاعاً للشخصية الأصغر والأضعف وإنما أيضاً لتلك التي حظيت أكثر من سواها بالتواصل الفلسطيني المسلم، بدءاً من نومه في حضن العجوز وتحضير راجبة الطعام له وتغطيته من قبل احد الركاب وصولاً إلى نزوله مع السائق. ويأتي استدعاء القائد

الصهيوني للطفل بعد أن نزل من السيارة مع السائق ممسكاً بيده قطعاً لتواصله مع هذه الجماعة، وفرض القائد لنفسه بدلاً لذلك السائق ونقيضاً له في آن، بقدر ما كان هذا الأخير قائداً للتواصل السلمي الفلسطيني وما يجسد الأول من قيادة للقطع الحربي الصهيوني. كما أن وضع الفلسطينيين الباقيين على النحو المذكور يحولهم من ركاب أنزلوا من السيارة إلى موقوفين في ذلك المكان الخاضع للسيطرة العسكرية الصهيونية على التخوم الفاصلة بين طريق تواصلهم المعهود وبين خارجه، أي يزيد من القطع الذي ينال منهم ويهددهم بمخاطر تفاقمه التي لن تتأخر عن الظهور. وليس صدفة أن تأتي الإشارة الأولى إلى طبيعة هذا المكان مرتبطة هؤلاء الفلسطينيين كإعلان مستمر عن تجانسهم مع عناصر الطبيعة والوجود وتنافر الحضور الصهيوني معها، فيأتي ذكر مجرى الماء وراء الفلسطينيين مباشرة متناسلاً مع صفهم على جانب الطريق، في حين يأتي إحصاء عدد هؤلاء من قبل القائد ليعلم عن تحولهم إلى رقم مبهم يوحي تعبيره عنه بالعبرة، لغة العسكري المعتدي، بدلالته ومآل مصير أصحابه، بقدر ما يوحي بتفاهم القطع الذي يحجب بهم. مقابل غفلة الطفل التي تتمثل فيها براءة السلم الفلسطيني يتقدم مخطط القائد المدرس ليعلم عن نفسه بحزم قاهر: «إنها الحرب، أيها العرب». على هذا النحو يعرف الصهيوني بنفسه قبل أي شيء آخر. وبناءً عليه تفهم كل الإجراءات التي اتخذت حتى حينه بدءاً من إنزال الركاب حتى صفهم على النحو المشار إليه آنفاً. وما بدا قطعاً منطقياً ليس إلا ميزة المنطق الحربي نفسه بكل استخفافه البارز بأي منطق آخر. فالحرب التي تشن على الفلسطينيين المسالين العزل والمصفوفين رجالاً ونساءً، بينهم العجوز والشيخ والصبي، إزاء السلح الصهيوني ليست حرباً، إنها مذبحه. ويشكل التهكم الذي يسم كلام القائد الصهيوني عن شجاعة العرب وفأرنة الصهانية تعبيراً صارخاً عن المفارقة بين مأساوية وضع الفلسطينيين ومهزلة موقف الصهانية والمنطق الذي يحكمه. فهذا الكلام كاذب ولا يستقيم مع مجمل المعطيات المطروحة بل ويناقضها، كما أنه في النهاية عبثي لا يقدم ولا يؤخر في القرار الخطير المتخذ مسبقاً كما تشير إلى ذلك دعوة القائد للصبيّة المسلحة من جنوده للإجهاز على هؤلاء الموقوفين. ولا يخفى أن شخصية الفتاة كما تقدم بسلحها وبمهمتها الإجرامية (القاطعة) تأتي مناقضة لشخصية الفتى الفلسطيني بشابته و«مهمته» الجمالية (الواصلة). وإذا كانت «شبابة القصب» ملتحمة في دورها كما في كيانها بالطبيعة والمكان ومتجانسة معها مكتملة لها، فإن الرشاش الناري مفارق لها متنافر معها ومعكر ومؤذ ومبدد لعناصر الوجود فيها. والأخطر في توجه القائد إلى المجنونة من دعوته إياها للقتل، تلك الصيغة التي يؤدي فيها قرار بالقتل، بحيث يتحول القطع الذي يمثله إلى وصل (سلمي) خاص بالصبيّة المذكورة (إلى تملك سلمي)، وذلك بقدر ما تعبر هذه الصيغة في حد ذاتها (كحصة) وفي زمنيها (اليوم) عن تواتر عمليات القتل الجماعي

الإجرامية هذه، عن انغماس مديد ومفتوح في عمليات القطع المميته التي تتال من الفلسطينيين. كما قد يكون في عملية القتل الجماعي المتواتر هذا ما يفسر إجراماً آخر سبقت الإشارة إليه، وهو تفجير الصهانية لدار الأيتام في يافا، بقدر ما يبين سبباً من أسباب تواجد هؤلاء الأيتام، ويبين بالتالي عن مدى شراسة واتساع هذا الإجرام الصهيوني. وهو ما قد يعطي تفسيراً لمهمة الطفل نفسه الباحث عن مصير أبيه في حيفا.

يأتي مقتل الفلسطينيين ماثلاً لحياتهم في تأكيده، في القطع الذي يتعرضون له، للتواصل فيما بينهم ومع طبيعة المكان الذي يوجدون فيه، على تجانس مثير. فهم يتكلمون «هناك كتلة متراسة واحدة مختلطة اختلاطاً دموياً»، وفي حين تغرق أجسادهم في الوحل فإن دمهم «الأحمر يتسرب من تحت اجسادهم، ويتجمع، وينساب مع جدول المياه إلى الجنوب»، ورغم الوحدة التي تتكون من جثث القتلى فإن انفصال الدم عن الجسد هنا تعبير حاد عن القطع الذي يصيبهم، واختلاط الجسد بالتراب من ناحية والدم بماء الجدول تعبير صريح عن تواصلهم مع الطبيعة وانسجامهم مع عناصرها حتى الاتحاد الذي يعكس اتحادهم ذاته، حتى لتبدو وجهة الجدول المكانية تعبيراً عن عجزهم عن إكمال طريقهم وبلوغ أهدافهم، عن الحاجز الذي اصطدمت به حركتهم وأجهضت عنده.

بيد أن هذه النهاية المأساوية ليست نهاية الاعتداء الصهيوني الذي يتحول إلى ما تبقى من أولئك الفلسطينيين، إلى الطفل. فالقائد العسكري الصهيوني في شدة أذني الطفل بقسوة يعامله بعنف هو نقيض الرعاية التي عرفها مع ذويه في السيارة، وإذ يطلب منه تذكر المذبحة حين يرويها لا يثبت فقط القطيعة التي أنشأها بين الطفل وذويه بانتراعهم منهم، وإنما يسعى لتثبيت الصلة بينه وبين الجماعة الإرهابية التي يقودها، أي بينه وبين هذا القطع القاتل الذي تمثله. ويأتي ضربه للطفل بعصاه إمعاناً في العنف الذي يأخذه به، كما يأتي تهديده له بالقتل إن لم يسرع إلى تلبية ما طلبه منه تكريساً ومقاومة للدور القطعي الذي يوليه إياه فيبتعد بصورة كافية قبل أن يبلغ القائد الصهيوني في عده العشرة.

لكن موقف الطفل الذي يبقى «ثابتاً في الأرض» لا يعبر فقط عن دهشته إزاء ما حصل عبر نقل بصره بين الخندق والصبية القاتلة، وإنما يعبر كذلك عن عدم استجابته للقطع المفروض عليه وعن انتباهه إلى أولئك الفلسطينيين القتلى وتواصله معهم، وانتباهه إلى العالم المسالم وإنما أيضاً الغافل الذي كانوا يشغلونه، وهو ذلك العالم الذي ينسج علاقات انسجام وتكامل مع الطبيعة. هذا ما يأتي النص على تأكيده في ذكره هنا لطبيعة المكان بإشارته إلى الأشجار المزروعة حول الطفل، وتشبيهه بأي منها، مستعيداً بذلك ما سبق واعتمده بصدد الفلسطينيين حين أشار إلى مجرى الماء وراءهم. مع ذلك فإن العنف الصهيوني المتزايد المتمثل هنا بالضربة التي يتلقاها

من عصا القائد ويحس بها «تسلخ لحمه» تتوصل إلى اقتلاعه من موقفه، وإلى قطعه عن العالم المذكور حين يضطر للركض متوجعاً باكياً كأنه بذلك يستجيب لمتطلبات القطع التي فرضها الصهانية عليه، بحيث يبدو تصرفه هذا انتصاراً لهؤلاء ونجاحاً لمخططهم التقطعي الذي نفذوه فيعلو ضحكهم صاخباً كاحتفاء بهذا الانتصار.

● إلا أن هذا الضحك الذي يصل إلى أذني الطفل يدفعه إلى التوقف عن الركض والوقوف في مكانه، ثم وضع يديه في جيبي سرواله والسير بخطوات ثابتة هادئة وسط الطريق مولياً الصهانية ظهراً، وهو يعد ببطء: «واحد، إثنين، ثلاثة...».

إن هذا التحول في تصرفات الطفل يشكل انعطافاً جذرياً في المواجهة الجارية بين السلم الفلسطيني والحرب الصهيونية، وبالتالي في النص ككل. فالاعتداء الصهيوني الذي لم يجابه حتى حينه بغير الرضوخ الفلسطيني المسالم يعرف لأول مرة عصياناً وتحدياً لبسطه وإرهابه. يقوم هذا التحدي على قطع مع الانصياع للمخطط التقطعي الصهيوني، وعلى وصل بعالم التواصل الفلسطيني. إذ بقدر ما يشكل موقف الطفل معارضة للتقطيع الصهيوني المفروض عليه مع خطر القتل الفاتك الذي تتضمنه يشكل التحاماً بنقيضه الفلسطيني الذي شهد الطفل مصرعه. كأن هذا العصيان الواعي للقتل الذي يستدعيه إعلان تواصل وجودي عميق بذلك العالم الفلسطيني الذي فصل عنه، وبناء لذلك يجسد فعل مقاومة فلسطينية للاعتداء الصهيوني وليد مع كل المخاطر المدمرة التي تحيق بولادتها ونشوتها واستمراريتها.

إن الطفل ينهض في ذلك لتولي مهمة تاريخية فات الكبار القيام بها وكان لتقصيرهم هذا أن يعطي لمقتلهم هذا الشكل المهين، ولمقاومته البسيطة هذا المغزى البطولي الرفيع. إن الطفل الذي أخرج من طفولته في مهمة البحث عن أبيه، يخرج الإرهاب الصهيوني الغاشم والمروع من البراءة إلى المقاومة ليعان ألقاً جديداً يقف النص عند معالمة الأولى التي ترسمها خطوات الطفل الثابتة.

● إذا كان لمطلع النص أن يعلن بنيته العامة فإن النظر في العبارة الأولى التي تفتحه قد يسمح باستقراء معالم هذه البنية ووجهتها الدلالية.

تحدد هذه العبارة ظاهراً الإطار المكاني والزمني الذي ينطلق منه القصص، وذلك من خلال وصف عناصر الطبيعة والموضع وتعيين أوضاعها الخاصة. لكن التمعن في هذا الوصف والمعطيات المختلفة التي يؤديها قد يسفر في بلوغه للباطن الدلالي الذي تتضمنه عن رؤية لطرح يتعدى رسم المحيط الواقعي ومكوناته إلى الإيحاء بالعلاقات الأساسية التي تحكم النص وبالأفق الذي تضي نحوه في صراعاتها. هكذا تبدي الجملة الأولى في تناوّلها للزبد الذي يسمح رمال الشاطئ عن تواصل بين هذين العنصرين المذكورين. إلا أن هذه

الحركة مفعمة بتواصل أعمق من خلال ما يتضمنه هذا الزبد نفسه من اجتماع الماء والهواء فيه من ناحية، ومن تآكله وتوقده باحمرار الشروق من ناحية ثانية، كأن حركته هذه بناء لما يحفل به من اختلاط عناصر الماء والهواء والنار، ولما تمتزج به من تراب، حركة اتصال وتآلف وانسجام قصي بين عناصر الكون الأربعة. وحركة التواصل العميق هذه محددة عند طلوع الشمس وبدء النهار ليعلن بذلك زمنها أو بدءها الخاص. وهو زمان دموي كما يوحي به الاحمرار الذي يتوهج به الزبد المذكور. كأن النص يبدأ قصصه من بدء زماني محدد هو زمن تواصل عميق يحمل علامة النزف الدموي التي تدمغه، والتي تعطي لونها للرمال (الأبيض) الذي تتصل به. ويتيح هذا الزبد تصور انطلاقة مع عنصر رقيق وضعيف، لكنه ليس في الحقيقة إلا جزءاً من كل أكبر هو الموج والبحر الذي يتصل به، إنه الطليعة التي تنبئ بالمجموع الذي وراءها.

على هذا النحو يمكن تصور المقاومة الطفلة التي تعلن التواصل الفلسطيني إزاء التقطيع الصهيوني الدموي قائمة هنا عبر هذا المقول الأولي. وتأتي الجملة اللاحقة في العبارة الأولى لتؤكد بدورها هذه الوجهة في الإيحاء الدلالي بالبنية العامة. فأشجار النخيل التي «تنفض عن سعفها الكسولة المسترخية نوم ليلة البارحة، وترفع أذرعتها الشوكية إلى الأفق حيث كانت أسوار عكا تشمخ فوق الزرقفة الداكنة» تعلن بوضوح صحوماً أنياً يتفق مع الشروق الأنف الذكر يقطع عبر النفض الذي تقوم به ليس مع الليل البارح بما يتضمنه من نوم وغفلة وكسل وتقصير، وإنما يتصل كذلك عبر الرفع الذي تؤديه بأفق اليقظة والسهر والصمود والمقاومة، كما يمكن لأسوار عكا الشاخنة أن تعينه. إن هذا التحول من الليل المعتم إلى النهار المشرق، الذي هو تحول من الاسترخاء والغفلة إلى النضال والمقاومة، يحمل بدوره آثار النزف الدموي الذي يولده، كما يشير إلى ذلك مجدداً هذا اللون الأرجواني الذي تصبغ به الشمس «رؤوس الأشجار، والماء، والطريق». وتكثر إشارات المقول هنا المتصلة ببنية النص وتفاصيلها. فالطريق المذكور هو ذاك «القاد من حيفا، مصعباً إلى الشمال» أي ذاك الذي تسلكه سيارة الركاب الفلسطينيين من حيفا إلى نهاريا. . . والشمس تبرز من وراء التلال إلى يمين هذا الطريق، أي في تلك الجهة التي يرجح قيام الحاجز الصهيوني فيها. كما أن وضعها كعنصر ناري يجعلها أكثر ارتباطاً في الظاهر مع الصهانية أصحاب السلاح الناري، بقدر ما يجعل اللون الأرجواني الذي تصبغ به العناصر المشار إليها لوناً دمويماً صارخاً. إلا أن الوصف الخاص بهذا اللون يجعله متنازلاً بين السلبية والإيجابية. فهو يتقدم كلون «أرجواني متضرج بالحياة المبكر». وإذا كانت أرجوانيته تحتمل المصدر البحري (الموركس) كما المصدر البري

(شجر الأرجوان) فإن التضرج بدوره يحتمل معنى التلطخ كما معنى التشقق والفتح، كذلك يمكن للحياة بدوره أن يعرف عبر مرادفه الاحتشام معنى الخجل كما معنى الغضب؛ وللمبكر أيضاً أن يدل على وروده في الغداة، كما متقدماً ومسرراً.

إن هذا التنازع في السياق الذي يأتي فيه بليغ الدلالة. فهو يعلن الصلة الحميمة بين السلب والإيجاب، كما يتمثلان بالجانبين الأول والثاني من هذه المترادفات المذكورة للمفردات المعنية، ليبدل الجانب الأول على النزف الدموي الرهيب، والثاني على نهوض المقاومة الباسلة.

هكذا يكتمل مشهد الشروق في العبارة الأولى باعتباره إعلان ولادة صبح جديدة هو ككل ولادة دموي، إنه تصوير حي لبزوغ المقاومة الفلسطينية الطفلة من رحم المعاناة التي عرفت نحر السلام الفلسطيني. إن هذه الدموية التي تتقدم خاصية مميزة للشروق هي جزء لا يتجزأ من عملية التحول من الليل إلى النهار، بقدر ما تدل على تلك الدموية القاتلة التي يعرفها الفلسطيني كجزء لا يتجزأ من عملية الصحو التي تحوله من مسالم إلى مقاوم، ليصبح التنازع المشار إليه بين السلب والإيجاب، بكل التأويلات التي يستدعيها، تعبيراً عن الصراع بين الصهيوني المعتدي والفلسطيني المقاوم بكل الاحتمالات التي يفتح عليها، لتؤكد العبارة الأولى بذلك بنية النص العامة في خطوطها الكبرى.

يؤكد ذلك هذا التوزيع الثلاثي الذي تعرفه بناء للمسند إليه الذي يشكل ركيزة جملها المختلفة بدءاً من الزبد المتوهج وصولاً إلى قرص الشمس الكبير، مروراً بأشجار النخيل المعوجة، والذي يتفق مع التشكل الخاص الذي تعرفه بنية النص في انطلاقة من التواصل الفلسطيني إلى التقطيع الصهيوني فالصمود والتحدي علامة الزمن الفلسطيني المقاوم الوليد.

بناء لما تقدم تؤكد بنية النص العامة في تشكلها الثلاثي الذي يمضي من التواصل إلى التقطيع فالمقاومة البنية العامة لأقاصيص المرحلة الثانية في إنتاج غسان كنفاني (١٩٦٠ - ١٩٦٩). وهي في الطرح الدلالي النضالي الذي تنتهي إليه تتلاقى مع الطرح الدلالي العام لهذا الإنتاج ككل المرتكز على التضاد القائم بين العدوان والذود. . . على أن المقاومة الناشئة تعرف خصوصية تسمها بطابع شديد التميز لما تختزنه حركتها من نضالية فذة تجمع بين الابتعاد والاقتراب نظراً لما تتسم به من ضعف ومن تصد، ولما ينم عنه ثباتها من تجاوز للخضوع وتقصير عن القتال لما يتسم به من بطولة وعجز، ولما ينتج عن اجتماع هذا الثبات وتلك الحركة من ذود طفولي مشرع على احتمالات القتل والإبادة والنصر والتحرير، كرد جدلي على اعتداء الحرب التقطيعية الصهيونية على السلم التواصل الفلسطيني.